الرجل الشاعر الفنان :

حافظ ابراهـــــيم

... إذا كانت الدنيا لم تحبس عنه لوناً من ألوانها المشرقة ، فانها فى صدر حياته قد أزمته مواطنها القاتمة السوداء ؛ كما على أنه فى سرائه وفى ضرائه كان الرجل المراح ، لا عن تبذل ، ولا عن إسفاف ؛ وكان الرجل الضحوك ، لا عن عى فى وزن نفسه ، ولا عن ضيق فى فهم مشاعره ، ولا عن خفة تساير خفة الطفولة ، ونزق المتوهين . . . وكان الرجل الأنوف الذى لم يلبس فى حياته مسوح الضعة ، ولا أثواب الهوان ؛ وكان الرجل الذى خلق ليتصدر الأنداد فى غير اعتساف ، وفى كثير قصد عن نشدان الصدر والقمة ؛ وكان الرجل الذى يرى كل شىء فى العالم على ضوء نفسه ، لا على ذلك الضوء الذى يشع من آفاق قريبة أو بعيدة ، آفاق الذين يملكون زمام الجاه . . وأعنة الأمور . . . وكان الرجل الوفى الذى لم يتبرم بود ، ولم يسع إلى هدم إخاء ، ولم يدع إلى تقويض صرة تصله بصاحب ؛ وكان الرجل الشريف الذى لم يدنس لسانه بالطعن فى عورات الآخرين ؛ وكان الرجل الأبى الذى لم يسع إلى ذى سلطان ليضع خصائصه فى كنفه ، أو تحت ظل جناحه الوارف . . . !

ثم :

ثم كان الشاعر الذى لم يكن « شيطانه » إلا ملكا ، ولم يكن أفق خياله إلا فلكا ، يسبح فى الخضم فلا يتيه ، ويجرى على صفحة الغدير فلا يتعثر . . . ويطوى هوج الموج ، بهذا اليسر الذى يطوى به الجدول الرقراق . . . ، وكان الشاعر الذى اكتنزت العصور الآتية له تتاجاً قل أن يذوى ما فيه من سحر ، وقل أن يثوى ما فيه من أثر ، وقل أن يمضى إلى الفناء ما فيه من جلال ، وقل أن ينتهى ما فيه من إمتاع وطرب . . . .

كان شعر حافظ مزقة من عاطفة حافظ ، وهى العاطفة التى طلعت على الدنيا من بين أنياب الذوبعة . . ذوبعة الضيق ونضوب اليد ؛ فكانت حافلة بألوان الخير ، وكانت جياشة بكل ما فى الحياة من حقائق ، وكانت لها سلامة فى الذوق ، ودقة فى التوجيه ، ورقة فى كشف كل خبىء . . . وهذه العاطفة هى التى أوحت إلى حافظ ، أن يرسل إلى الناس دفين ما اكتوت به نفسه من تنكر الأيام وجحود الزمن ، دون أن يضن بهذا الدفين ، ودون أن يقف فى ذهة بذله مكتوف اليدين . . .

ألا فانظر إليه يكشف عن حقائق نفسه فى قوله

حافظ ابراهيم
فقيد الشرق والعربية

سعيت إلى أن كدت أتمل الدما وعدت وما أعقبت إلا التندما
سلام على الدنيا سلام مودع رأى فى ظلام القبر أنساً ومغنما

ألا إنه قد سار عواطفه ، فتناول براعته القادرة ، واصطحب «شيطانه» النفاح، ليشرك معه فى شهود حياته كل من تحمل الأرض . . . وهل ذلك إلا الصدق فى التوجيه ، وإلا الايمان بملابسة الحقيقة مهما تكن ثقيلة مضنية ؟

كان شعر حافظ زمرة من جماعات مواهبه التى أدركها كل من قرأ له أو جلس إليه فأمتع نفسه بساعة من ساعات أحاديثه الباقية على الزمن ، وهكذا عرف شعره بالسلاسة والجزالة والرقة والسهولة والامتاع والروعة ، كما عرف حديثه بالظرف ، والأناقة ، والرشاقة ، والنفاذ إلى قرار الصميم . . .

ثم . . .

ثم كان الفنان الذى ازدحمت حياته بألوان الفن كلها . . . كان كاتباً يقتنص اللفظة الأنيقة ليودعها المعنى المنطقى الحاسم ، وكان « اجتماعياً » لا تفوته لوثة من لوثات المجتمع إلا مضى وراءها بقلمه ، وكان « محدثاً » لا يتبرم به لون من ألوان الحديث ، فله حين يجد الجد جولات فى القول قلما يستطيعها أحد من أشياعه ، وكان حين يتألق فى الأفق ضوء التندر رجل الفكاهة وواحدها . . . وكان خطيباً لم تعرف المنابر صوتاً أرسل الشعر فى مثل سياقه ، ولا فى مثل نهجه ، حتى ليقولون إن « سعداً » يرحمه الله — على فرط نفوذه بين الجماهير كخطيب مصقع — رغب إلى «حافظ» — فى كلمة من كلماته الفكهة — ألا يخطب الجماهير نثراً .. حتى لا « يعطل» عليه « الصيت البعيد . . ! ! » ؛ وكان « موسيقياً » بينه وبين نفسه، حتى ليعرف عنه خاصته أنه حين يريد القريض لا يجمعه إلا من أذنه . . . تلك الأذن التى كانت تزن ما يردده لسانه من قول . . ! وكانت حياته آخر الأمر صورة من حياة الفنانين ، ففيها حرص على المتعة فى غير تبذل ، وفيها استخفاف بالدنيا ، أى استخفاف ، وفيها نزوع إلى عيشة « الحرية » التى يحرص عليها كل فنان ، وفيها إلى ذلك تجويد لكل شىء ، ونفاذ إلى كل شىء . . .

* * *

وما نحسب أننا نرضى فقيدنا العظيم بهذه الألمامة السريعة ، وتلك النظرة العجلى ، فان فى حياته دراسات مستفيضة ، وظواهر تدعو القلم إلى أن يجول ، ويجول ، دون أن يبلغ فى تمحيصها الشأو . .

ولكنها إلمامة سريعة لا نستطيع إلا أن نرسلها فى غمار تلك الدموع التى سكبها عليه الناطقون بالضاد . . .

رحم الله حافظاً ، وأوسع له فى رضوانه . . . .